بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا؛ **أمَّا بعد:**

فمن المسلَّم بهِ في أنظمة الحُكم والتي اختلفت في مشاربها وتعاقبت أجيالًا على حكم البشرية، منذ فجر التاريخ وإلى عصرنا هذا؛ بأن الحاكم هو المسؤول المباشر عن الكيفية التي تكون عليها الرعية، ولذلك قيل: "إذا صلح الحاكم صلحت الرعية".

ومن المسلَّم به –أيضًا– بأن صلاح الحاكم يعتمد بصورة مباشرة على بطانته التي تُحيط به وتُعينه على مسؤولية الحُكم.

ومن اللافت أن الإسلام قد حذَّر كل أمير ووالٍ ومسؤول من بطانة السوء؛ فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [آل عمران: 118]، ونرى الإمام ابن كثير رحمه الله يُفسر هذه الآية الكريمة بقوله: "يقول –تبارك وتعالى– ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطْلعونهم على سرائرهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبَالا أي: يَسْعَوْنَ في

مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقُّ عليهم"[1].

وكذلك ما ورد عن النبي ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى**»[2].

ولذلك قبل أن نشرع في بيان الأسس لا بد من توضيح يسير حتى لا يحصل أي التباس لدى القارئ، ففي هذا المقال -والذي نسأل الله أن يتقبله منا- قصدنا من عنوانه الموسوم (**أَساسُ التَّفاضُل لِنَيْلِ المَنازِل**) هو بيان الأسس التي يرتقي إليها الناس لنيل المنازل، وبعبارة أخرى كيف يختار الحاكم بطانته؟ وما هي الأُسس التي يعتمدها عند اختياره لذلك؟

فرُبَّ سائل يسأل: ما هو الأساس الحقيقي الذي يُبنى عليه التفاضل لنيل ما يمكن نيله من المنازل؟

أو بعبارة أخرى: ما هو أساس التفاضل بين الناس الذي يجعل الرجال يقدمون لك أحسن ما عندهم ويبذلون في سبيلك كل ما يستطيعون؟

فإن قال البعض الوراثة، فسنبين ما ستفسده الوراثة إن أصبحت هي الأساس، ففي الوراثة الناس يتفاضلون ويتقدمون بأنسابهم، ابن فلان خير من ابن علان، وابن الوزير مقدم على ابن الخفير.

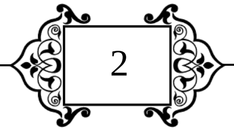
يموت الإنتاج وتتوقف حركة التقدم والرقي إذا ما اعتُمدت الوراثة، فهؤلاء لو قدمتهم لنيل المنازل لن ينفعوك بشيء، لأنهم لن يعملوا وحتى من هم قادرون على العمل لن ينفعوك -أيضًا- لأنك قتلت الدافع في نفوسهم.

ولقد شهد التاريخ القديم والمعاصر بأن هناك مناصب كانت حكرًا لعائلة دون غيرها، ولعل المطلع على ما ورد في هذا الخصوص يعلم ما أفسدته الوراثة في هذا الجانب.

---

(1) تفسير ابن كثير (2/ 106).

(2) أخرجه البخاري (9/ 77) برقم: 7198.



وربما قال البعض: لنأخذ بمعيار آخر للتفاضل بين البشر أَلا وهو معيار المحسوبية، فيتقدم الأصحاب والأصدقاء على من عداهم من الناس، فهؤلاء يمثلون أهل الثقة يتقدمون دائمًا على من يعملون وهم أهل الخبرة، وهكذا تكون وظائف القيادة والوظائف العليا مقصورة على أهل الثقة دون سواهم.

ومثل هذا المعيار -معيار المحسوبية- لو أخذت به -كمعيار للتفاضل- لَكَثر النفاق والوصولية، وانتشرت السلبية والتسيب.

حيث يكثر النفاق زلفى للحاكم وتقربًا إليه ولخواصه، ويصبح الوصول إلى رحابه هدفًا كبيرًا تتضاءل أمامه كل أهداف المصلحة العامة؛ فيصاب الإنتاج والتقدم -في كل صوره- بشلل عميق.

ولعل الدول الانقلابية والحركات الجهادية كانت الرائدة في اعتماد هذا الأساس، فعندما يصبح الأمن هاجسًا تكون الثقة مقدمة على كل الاعتبارات دون مراعاة ما يمكن مراعاته، فما دامت البطانة موثوقة فلتفسد ما تفسد فإن لهم سابقة، وهذا ما جعل المسيرة الجهادية تدخل في كثير من المطبات، بل وأصابها بشلل واضح في عدة مرافق من مرافقها.

وبعد هذا نقول ما هو المعيار المناسب للتفاضل بين البشر؟

الجواب: العمل، والعمل وحده، فأنت إذا أغدقت على من يعمل فإنك تشجعه على الاستمرار في العمل، وفي الوقت ذاته تدعو الآخرين إلى العمل.

وهذا ما كان عليه الحكم في الإسلام، فعند الرجوع إلى كتاب الله نجد فيه كثيرًا من الآيات التي تحث على هذا الأساس، ولنتأمل معًا قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾ [النجم: 39، 40].

فالإنسان لا يرتفع به سوى عمله، ولا يهبط به سوى عمله، ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: 7، 8]، بل يذهب إلى حد تكون المساءلة ثوابًا أو عقابًا.

وأما أبسط صورة من صور هذا الأساس فقد وضحها الله ﷻ في محكم كتابه: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: 13].

فقد أبان الباري ﷻ في هذه الآية الكريمة كيف جعل خلقه ينتسبون إلى شعوب وقبائل شتى، فتتعدد الأجناس والأنساب والألوان، ولكنهم على تعدد أنسابهم يتفاضلون أمام خالقهم بالتقوى وحدها، أي بالعمل الذي يُراعى فيه أوامر الرحمن ونواهيه.

والأمثلة والشواهد زاخرة في الكتاب والسنة، وكذلك ما سار عليه السلف في عهد الخلفاء الراشدين من أصحاب رسول الله –رضوان الله عليهم أجمعين–، مؤكِّدين على أهمية العمل كأساس للتفاضل فيما بينهم.

فعن رسول الله ﷺ قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ**» قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالًا**»(3).

وروي عن النبي ﷺ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ، قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»(4).

ولقد فهم عمر بن الخطاب ؓ وهو يقود الأمة ذلك كله، فعندما استدعى إليه سعد بن أبي وقاص ؓ من نجد ليؤمره على حرب الفرس قال له، وهو يوليه القيادة على جيوش المسلمين: "يا سعد، سعد بني وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله ﷻ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحي السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة؛ فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ يلزمه فالزمه... فالصبر الصبر"(5).

---

(3) أخرجه أحمد (2/ 235) برقم: 7211.

(4) أخرجه الترمذي (4/ 566) برقم: 2330.

(5) تاريخ الأمم والرسل والملوك للطبري (2/ 382)، والبداية والنهاية (9/ 614).

كان العمل عند عمر رضي الله عنه هو معيار التفاضل بين البشر، فقد كان بقوله وعمله أحرص الناس على تأكيد ذلك فقال: "والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى قرابة، وليعمل لما عند الله فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه"[6].

وقبل أن ننهي لا بد من توضيح فيما يتعلق بالمسيرة الجهادية، ونخص بالذكر الدولة الإسلامية عبر تاريخها المشرف، بأن النواة الذي بنيت عليها دولة الخلافة كان على يد رجال انطبق عليهم أساس الصداقة والثقة، وأساس العمل في آن واحد، فقد قدر الله أن يجمعهم في الأسر وألف بين قلوبهم، فضلًا عن خبراتهم وسابقتهم، والمقصود من هذا الكلام بأن الشخص قد تتوفر فيه المعايير الثلاثة، فقد يخلف الرجل أبيه، ويكون قادرًا ماهرًا في إدارة وتولي ما أوكل إليه من مهام، فضلًا عن الثقة والقربى التي هي بطبيعة الحال متوفرة فيه.

ونكتفي بهذا القدر، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

كَتَبَه:

أبو ناصر الحجازي

الخميس 19 رجب 1439 هـ – 5 أبريل 2018 م

❊ ❊ ❊



(6) الطبقات الكبرى لابن سعد (3/ 295)، وتاريخ الأمم والرسل والملوك للطبري (2/ 570).